الفصل الثانى

القرآن والعلم

ليس هناك دين رفع من شأن العلم كما رفع دين الإسلام ، وقد تعددت كلمة «علم» فى القرآن الكريم ، فشغلت من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٣ صفحة .

وحاولت أن أقوم بإحصاء عددى لمادة هذه الكلمة التى جاءت بصور مختلفة، وكلها تدور حول العلم ومشتقاته فوجدت صعوبة فى ذلك .

علام يدل هذا ؟ ألا يدل على أن القرآن الكريم - وإن كان كتاب هداية - أتاح للعقل البشرى أن يستعمل كل ما يملك من طاقة فى سبيل الحصول على العلم والمعرفة. إن الكون كله كتاب كبير إذا قلبت صفحاته أدهشتك أسراره ، وغمرتك عجائبه ، واستولت على نفسك غرائبه .

وقد دعا القرآن الكريم أن ننظر فى هذا الكتاب بوعى وتدبر ، وفهم وتفكر :

« إن فى خَلْق السموات والأرض واخْتلاف اللَيل والنّهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ، ويَتفكّرون فى خَلق السّموات والأرض ربنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحانك » [١] . والفكر هو طريق العلم ولم يكتف القرآن بقراءة كتاب هذا الكون المفتوح ، وما حوى ، بل وجه الإنسان الى ذاته، إلى نفسه ، ليقف على أسرارها ، وملكها العجيب : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وهؤلاء الذين أيقظوا عقولهم لتسبح فى ملكوت السموات والأرض هم العلماء الذين رفع الله قَدْرهم ، وأعلى شأنهم ، وأعز مكانتهم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والّذين أوتو العلم درجات » [٢]. « هلْ يستوى الّذين يعْلمون والذين لا يعلمون » [٣] وهم العلماء الذين يطلبون المزيد ، ويجرون وراء الحقيقة ، ولا ينتهون فى ميدان العلم

---

(١) آل عمران ١٩٠ ١٩١

(٢) المجادلة ١١

(٣) الزمر ٩

إلى مرحلة : « وقل ربي زدني علماً »[1] . « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »[2] .

وهم العلماء الذين يخشعون إجلالاً لآيات الله ، فيسجدون بعقولهم وقلوبهم إيمانا بهذا الإبداع ، وتسليماً لهذه القدرة : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء »[3] .

وفي ظلال القرآن الكريم نشأت علوم متعددة ، وسَّعَتْ مجال اللغة العربية من حيث دلالة ألفاظها ، ومعرفة مخارج حرفها ، وما يستنبط من تراكيبها في مجال القواعد الأصولية، والأحكام الفقهية ، فزادت المعاني وازدهرت ونشأت دراسات متعلقة بالقرآن الكريم في مجالات شتى . ملأت المكتبة الإسلامية بمؤلفات ضخمة ، وقضايا متنوعة في حقل الدراسات القرآنية .

ولا غرو في ذلك ، فإنّ القرآن الكريم الذي اشتمل على ستة آلاف آية نزلت في ثلاث وعشرين سنة لا تختلف آية منها عن آية أخرى في المستوى البلاغي ولا تتعارض آية منها مع آية أخرى فيما اشتملت عليه .

هذا القرآن الكريم تحتوي آياته على إشارات علمية لينطلق من خلالها العقل الإنساني في الكون الرحب من أجل التعرف على أسراره .

وقد أشار ابن خلدون إلى الدراسات الإسلامية التي تمت في حقل القرآن الكريم نذكر أهمها فيما يلي :

ا - علم القراءات :

قال ابن خلدون « القرآن هو كلام الله المنزل على نبيّه المكتوب بين دفّتي المصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه ، وكيفيات الحروف في أدائها ، وتنوقل ذلك ، واشتهر

---

(١) طه ١١٤

(٢) لقمان ٢٧

(٣) فاطر ٢٨

إلى أن استقرت منها سبع طرق معيّنة تواتر نقلها أيضاً بأدائها ، واخْتُصّت . بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها عن الجمّ الغفير ، وصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قُوتها فى النقل [١] .

٢ - علم التفسير :

قال ابن خلدون : اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم وكان ينزل جُملاً ، وآيات آيات .. وكان النَبى عليه السلام يَبيّن الجُمل ، ويُميِّز الناسخ من المنسوخ .. الخ [٢] .

٣ - علم أصول الفقه :

قال ابن خلدون : اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية ، وأجلها قدراً، وأكثرها فائدة وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف.

وأصول الأدلة الشرعية هى: الكتاب الذى هو القرآن . ثم السنة المبينة له الخ [٣].

٤ - علم الفقه :

قال ابن خلدون : الفقه معرفة أحكام الله تعالى أفعال المُكلّفين [٤] بالوجوب والحظر، والندب والكراهة ، والإباحة ، وهى متلقّاةٌ من الكتاب والسنة .

٥ - علم الفرائض :

هو معرفة فروض الوراثة ، وتصحيح مهام الفريضة وهو يحتاج إلى الحُسْبان فجعلوه فنّا مفردًا ، وهو فنٌّ شريف لجمعه بين المعقول والمنقول ، والوصل به إلى الحقوق فى الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين [٥]

---

(١) المقدمة / ٤٠٢ (٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) المرجع نفسة / ٤١٨ .

(٤) المرجع نفسه / ٤١١ .

(٥) المقدمة / ٤١٧ .

٦ - علم الخلافيات :

قال ابن خلدون : اعلم أن هـذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعيـة كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لابد من وقوعه .

واتسع ذلك فى الملة اتساعاً عظيماً ....

وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب إمامه ... إلخ .

وعلق ابن خلدون على هذا العلم بقوله : « وهو لـعمرى علم جليل الفائدة فى معرفة مأخـذ الأئمة وأدلتـهم ، ومران المـطالعين لـه على الاسـتدلال فيـما يرُومون الاسـتدلال عليه»[١] .

ولاشك أن بعض الآيات القـرآنية كانت مثار جدل وخلاف بين الـعلماء ، ممّا كان له أثر كبير فى اشتعال الفكر ، وإذكاء العقل ، وازدهار العلم .

٧ - الجدل :

وهو معرفة آداب المناظـرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهيـة وغيرهم . وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال ، والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج [٢] .

٨ - علم الكلام :

وهو علم يـتضمن الحجاج عـن العقائد الإيمانـية بالأدلة العقـلية ، والرد على المـبتدعة والمنحرفين فى الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة [٣] .

ولابن خلدون في العـلم منهج علمىٌ عظيم سجـله فى مقدمته لتصحيـح العقيدة فى ضوء ما أثبته القرآن من أدلة وبراهين .

هذه هى بعض العلوم القرآنية التى استـمدها علماء الإسلام من القرآن الكريم ونبغوا فيها نبـوغاً ، ونتاجهم الدراسى مـن هذه العلوم يملأ المكتبـة الإسلامية بمختلـف المؤلفات والمصنفات .

---

(١) المرجع نفسه ٤٢١ (٢) المرجع نفسه ٤٢٢ (٣) المرجع نفسه ٤٢٤

٩ - علوم اللسان :

ولا أنسى أن أضيف الى هذه العلوم القرآنية علوم اللسان، لأنها ضرورية لمعرفة علوم القرآن. وقد أشار ابن خلدون فى الفصل السادس والأربعين من مقدمته إلى هذه العلوم اللسانية بقوله ، « فصل فى علوم اللسان العربى ، وأركانه الأربعة :

اللغة والنحو ، والبيان والأدب ، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة [١] .

---

(١) المقدمة / ٥١٤ .